مريم العذراء في إنجيل متى

الأب نجيب ابراهيم الفرنسيسكاني

يذكر الإنجيليّ متى مريم العذراء أمّ يسوع في الفصلين الأولّين من إنجيله، حيث يخبر عن طفولة يسوع كمقدّمة لكلّ الإنجيل، وبالتالي للخبر السّار عن يسوع المسيح ابن الله. حضور مريم في رسالة يسوع العلنية قليل جدّاً، حتى أنّه باستطاعتنا القول أنّ تعليمه عنها يقتصر على رواية الطفولة. من جهة أخرى أثّرت صورة مريم في إنجيل الطفولة على ما سوف يرويه متى لاحقاً عنها.

يعتقد البعض أنّ تعليم الكنيسة في ما يخصّ مريم العذراء وتكريمها غير مرتبط في الكتاب المقدّس، وهذا جهل لكلام الله. كما في كلّ العقائد المسيحيّة والصلوات الكنسيّة لدينا أساس كتابيّ وتقليدّي من الوحي الإلهيّ. لنكتشف صورة مريم في إنجيل متى في هذا المقال، ولا نبغي فيه قول كلّ ما يتعلّق بها في العهد الجديد، عارفين أنّ الصورة لا تكتمل إلاّ من خلال كلّ النصوص المريمية في الكتاب المقدّس.

أم المسيح

يظهر اسم مريم في بداية الانجيل. ففي نهاية نسب يسوع، يقول متى: «ويعقوب ولد يوسف زوج مريم التي وُلد منها يسوع وهو الّذي يُقال له المسيح» (١ : ١٦).

يركّز متى في سرد نسب يسوع على شخص داود، ذلك أنّه ينهي هذا النصّ قائلاً: «فمجموع الأجيال من ابراهيم إلى داود أربعة عشر جيلاً، ومن داود إلى الجلاء إلى بابل إلى المسيح أربعة عشر جيلاً» (١ : ١٧). مؤكّداً بذلك أن يسوع هو المسيح وكان قد بدأ في الآية الأولى باعتراف ايمان بمسيحانية يسوع «ابن داود ابن ابراهيم».

يتميّز خبر نسب يسوع المباشر أنّه وُلد من مريم. بعد أن ذكر نسب يسوع قائلاً أنّ ابراهيم ولد اسحق، وهكذا حتى متّان الذي ولد يعقوب الذي ولد يوسف، يغيّر متى طريقة السرد ليقول أنّ يسوع وُلد من مريم. يوسف لا يلد، فالفعل بالمجهول «وُلد» ينوّه عن الروح القدس الذي سوف يذكره في الآيات التالية، مسلّطاً الضوء على مريم، أمّ المسيح.

مريم ليست المرأة الوحيدة في نسب يسوع حسب متى، الذي يتبع اسلوب الكتاب المقدّس ذاكراً الآباء، ليتميّز بذكر أربع نساء: تامار الكنعانية (تكوين ٣٨) وراحاب الكنعانية (يشوع ٢ : ٦) وراعوت المؤابية جدّة داود (راعوت ٤ : ٢٢) وأرملة أوريا. لم يذكر متى نساء الآباء، سارة ورفقا وراحيل، رغم دورهنّ المهمّ في تاريخ الخلاص إلى جانب ابراهيم واسحق ويعقوب. فذكر الغريبات والخاطئات للتعبير عن شمولية الخلاص وانتصار خير الله على شرّ البشر. يبقى الله سيّد التاريخ في تحقيق مواعيده. فكان ميلاد يسوع من مريم البتول الحدث الذي يلقى الضوء على كلّ تاريخ الخلاص.

الأم البتول

يوسف لا يلد كسائر الآباء المذكورين في نسب يسوع، فكيف يكون يسوع ابن داود؟ يجيب متى على هذا التساؤل في القسم الثاني من الفصل الأول. في البشارة ليوسف (متى ١ : ١٨ – ٢٥) يريد الإنجيليّ متى التأكيد على أنّ يسوع هو من نسب داود بواسطة يوسف، رغم أنّه وُلد من العذراء مريم بقوة الروح القدس.

الملكة الأم

في الفصل الثاني من الإنجيل يتكلّم متى باستمرار عن «الطفل وأمّه». إنّهما في مركز الخبر. كلّ إنجيل الطفولة لدى متى (متى ١ – ٢) هو بشرى سارة عن ميلاد يسوع المسيح،

ابن داود بواسطة تبنّي يوسف، وابن الله الذي ولدته مريم من الروح القدس. رغم أهميّة رسالة يوسف، يسلّط الكاتب الأضواء على الطفل وأمّه لأنّه يريد التعبير عن إيمان الكنيسة بيسوع المسيح والملك وبأمّه الملكة.

من بين كلّ الملوك في نسب يسوع، وحده اسم داود يقترن بلقب الملك (متى ١ : ٦)، مما يعني الأهميّة التي يعطيها متى لهذا الملك الذي من نسله يأتي المسيح الملك المنتظر.

يرجع متى إلى موضوع الملك في الفصل الثاني، ولكن هذه المرة باسلوب تهكّمي. في بداية هذا الفصل يذكر متى ميلاد يسوع في بيت لحم اليهوديّة ، في أيّام الملك هيرودس. ولكنّ المجوس يسألون عن ملك آخر: «أين ملك اليهود الّذي وُلد؟». ومن ثمّ يُعطى لقب «ملك» مرتين، عندما اضطرب واضطربت معه أورشليم (٢ : ٣)، وقبل ذهاب المجوس إلى بيت لحم (٢ : ٩). أمّا بعد سجود المجوس للطفل، يُذكر هيرودس ست مرات ولكن بدون لقب ملك. بالنسبة لمتى، لم يعد هيرودس ملكاً. أخذت بيت لحم كلّ الأضواء وبالتالي ارتفع ملك داود المسيحانيّ على مُلك هيرودس الباطل. ومن السخرية بمكان أنّ هيردوس سمع نبؤة ميخا: «وأَنتِ يا بَيتَ لَحمُ، أَرضَ يَهوذا لَسْتِ أَصغَرَ وِلاياتِ يَهوذا فَمِنكِ يَخرُجُ الوالي الَّذي يَرْعى شَعْبي إِسرائيل» (متى ٢ : ٦ وميخا ٥ : ١).

يظهر الموضوع الملكيّ في «النجم» كاستعارة للمسيح الملك من نسب داود، كما تقول نبؤة بلعام «يَخرُجُ كَوكَبٌ مِن يَعْقوب ويَقومُ صَولَجانٌ مِن إِسْرائيل» (عدد ٢٤ : ١٧). لم يكن باستطاعة النجم أن يرشد المجوس إلى مكان الميلاد إلاّ بعد تفسير معنى ظهوره من قبل عظماء الكهنة وكتبة الشعب كلّهم (٢ : ٤)، الّذين أكّدوا مكان ميلاد المسيح في بيت لحم حسب النبؤات. أمّا الهدايا التي قدّمها المجوس للطفل هي أيضاً هدايا الملك، التي تستجيب للنبؤات المسيحانية « كَثرَةُ الإِبِلِ تُغَطِّيكِ بُكْرانُ مِديَنَ وعيفَة كُلُّهم مِن شَبَأَ يَأتون حامِلينَ ذَهَباً وبَخوراً

يُبَشِّرونَ بتَسابيح الرَّبّ» (أشعيا ٦٠: ٦).

في هذه الأضواء الملكيّة يضع متى «الطفل وأمّه» في وسط الرواية، حتى أنّ يوسف يبقى في الظلّ. في رواية المجوس لا يُذكر يوسف، رغم أنّ البيت الّذي دخلوا إليه هو ربّما بيته: «وَدخَلوا البَيتَ فرأَوا الطِّفلَ مع أُمِّه مَريم» (٢: ١١). يمكن أن يكون «البيت» رمزاً للكنيسة، فيه تجد الأمم كلّها «الطفل مع أمّه».

يكرّر متى عبارة «الطفل وأمّه» ليأخذ القارئ إلى جوهر الرسالة. هذا ما نجده في رواية يسوع في مصر:

«وكان بَعدَ انصِرافِهم أَنْ تَراءَى مَلاكُ الرَّبِّ لِيوسُفَ في الحُلم وقالَ له: قُم فَخُذ الطِّفْلَ وأُمَّه واهرُبْ إلى مِصْر وأَقِمْ هُناكَ حَتَّى أُعْلِمَك، لأَنَّ هيرودُسَ سَيَبْحَثُ عن الطِّفلِ لِيُهلِكَه. فقامَ فأَخَذَ الطِّفْلَ وأُمَّه لَيلاً ولَجَأَ إلى مِصر. فأَقامَ هُناكَ إلى وَفاةِ هيرودُس، لِيَتِمَّ ما قالَ الرَّبُّ على لِسانِ النَّبِيّ: مِن مِصرَ دَعَوتُ ابني» (٢: ١٣ – ١٥).

في البشارة ليوسف، قال له الملاك: «لا تَخَفْ أَن تَأتيَ بِامرَأَتِكَ مَريمَ إلى بَيتِكَ». لاحقاً لا تُذكر مريم بهذه الصفة، لأنّ متى يردّد نفس العبارة «الطفل وأمّه» راسماً مسافة معنوية بين يوسف والسرّ الّذي دُعيَ لخدمته والّذي ينوّه عن الحَمَل العجيب ليسوع من مريم.

في الرجوع من مصر، ترد نفس العبارة «الطفل وأمّه»، بينما كان من المنتظر أن تُذكر بشكل مختلف نسبة للخبر القديم الذي يستقي منه الاسلوب والحدث للتعبير عن حقيقة ما جرى. يلقي حدث الرجوع من مصر الضوء على سيرة موسى عندما رجع إلى مصر:

«وقالَ الرَّبُّ لموسى بِمِدْيَن: اذْهَبْ فارجِعْ إلى مِصر، فإِنَّه قد ماتَ جَميعُ النَّاسِ الَّذينَ يَطلُبونَ نَفْسَكَ. فأَخَذَ موسى امرَأَتَه وبَنيه وأَركَبَهُما على الحِمار ورَجَعَ إلى أَرضِ مِصر، وأَخَذَ عَصا اللهِ بيَدِه». (خروج ٤: ١٩ - ٢٠).

أما في متى فنقرأ عن رجوع يسوع إلى أرض إسرائيل:

«وما إن تُوُفِّيَ هيرودُس حتَّى تراءَى ملاكُ الرَّبِّ في الحُلم لِيُوسُفَ في مِصرَ وقالَ له: قُمْ فَخُذ الطِّفْلَ وأُمَّه واذهَبْ إلى أَرضِ إسرائيل، فقد ماتَ مَن كانَ يُريدُ إهلاكَ الطِّفْل. فقامَ فأَخَذَ الطِّفْلَ وأُمَّه ودَخَلَ أَرضَ إسرائيل» (متى ٢: ٢٠ – ٢١).

المقارنة بين النصّين تسمح أن نجد نقاط التشابه والاختلاف، فتساعدنا على فهم قصد الإنجيليّ. في التشابه نجد أمر الرّبّ بالرجوع. أمّا في الاختلاف نقرأ في سفر الخروج خبراً عن موت «جميع الّذين يطلبون نفسك»، بينما في متى يتكلّم عن موت شخص واحد هو هيرودس. ولكنّ الاختلاف الذي يعني موضوعنا بشكل خاص هو التالي: في سفر الخروج

يأخذ موسى «امرأته وبنيه وأركبهم على الحمار». في الإنجيل يقول متى: «قام فأخذ الطفل وأمّه». مريم هي قبل كلّ شيء أمّ الطفل. يجدر التنويه على أنّ الإنجيل لا يذكر الحمار كما في سيرة موسى، ولكنّ التفسير المسيحيّ الإيقونوغرافي حفظ هذه الصورة في كلّ الرسومات عن الهرب إلى مصر.

يصحّ التنويّه على أنّ «الطفل» هو الّذي يحتلّ الصدارة في عبارة «الطفل وأمّه» وفي كلّ الفصل الثاني من متى، الّذي ينتهي في هذه الآية التي تعبّر عن الفاعل الأساسيّ، حتى ولو لم يُذكر الاسم: «وجاءَ مَدينةً يُقالُ لها النَّاصرة فسَكنَ فيها، لِيَتِمَّ ما قيلَ على لِسانِ الأَنبياء: إِنَّه يُدعى ناصِريّاً» (متى ٢: ٢٣).

في متى ٢: ٨ – ٢١ يُذكر «الطفل» تسع مرّات بحال التعريف، حتى أنّ متى يذكره حيث يمكن أن يحلّ مكانه الضمير المنفصل، كما في الجزء الثاني من الآية ٢: ١٣. والعبارة اليونانية التي يستعملها متى (پايديون – طفل) هي غير المستعملة للتعبير عن أطفال بيت لحم (پايداس – اطفال) في ٢: ١٦، أو عن بني راحيل في ٢: ١٨ (تكنا – أبناء). نلاحظ هنا أنّ هذه العبارة هي نفسها المستعملة في الترجمة اليونانية للعهد القديم، للتعبير عن عمّانوئيل الداوديّ الّذي يرث الرجاء المسيحانيّ (أشعيا ٧: ١٦ و٩: ٥ و١١: ٦ و٨).

أمّ المسيح الملك في العهد القديم

يبدو أنّ الإنجيليّ متى يريد أن يُظهر صورة مريم في هذه الحلّة الملكية بقرب ابنها يسوع المسيح والملك. يرث الإنجيل التقليد الكتابيّ المتعلّق بوالدة الملك في البلاط الداوديّ. نلاحظ في هذا السياق كيف أنّ سفر الملوك يقدّم باسلوب واضح اسم الأم إلى جانب كلّ ملك من ملوك يهوذا، وكان لها لقب «السيّدة الكبرى»، أي «الملكة الأم» (راجع ١ملوك ١٥: ١٣).

تهيّء الأمومة الملكيّة في العهد القديم لأمومة المسيح التي تتكلّم عنها النبؤات، كما في أشعيا ٧: ١٤:

«ها إِنَّ الصَّبِيَّةَ تَحمِلُ فتَلِدُ ابناً وتَدْعو اسمَه عِمَّانوئيل»

وفي نبؤة ميخا ٥ : ١ – ٣ :

«وأنتِ يا بَيتَ لَحمُ أَفْراتَة إِنَّكِ أَصغَرُ عَشائِرِ يَهوذا ولكِن مِنكِ يَخرُجُ لي مَن يَكونُ مُتَسَلِّطاً على إِسْرائيل وأُصولُه مُنذُ القَديم مُنذُ أَيَّامَ الأَزَل. لِذلك يَترُكُهم إِلى حينِ تَلِدُ الوالِدَة فتَرجعُ بَقِيَّةُ إِخوتِه إِلى بَني إِسْرائيل ويَقِفُ ويَرْعى بِعِزَّةِ الرَّبّ وبِعَظَمَةِ آسمِ الرَّبِّ إِلهِه فيَكونونَ ساكِنين لِأَنَّه حينَئِذٍ يَتَعاظَمُ إِلى أَقاصي الأَرض.»

من الواضح أنّ هذه النبؤات غير متعلّقة بالأب، لأنّ لا ذكر له فيها، بل بالأم. يأتي المسيح عندما تلده أمّ المسيح، الملكة الأم.

يعبّر الإنجيليّ متى عن دور مريم من خلال اتّحادها الوثيق بالابن المسيح الملك. ليست بالطبع في مركز الخبر الإنجيليّ، ولكن رغم أهميّة يوسف ابن داود، تبقى مريم في المركز إلى جانب الطفل. انتشر هذا التقليد الإنجيليّ في الفنّ الكنسيّ عبر العصور لتصبح «الأم مع الطفل» موضوعاً أساسيّاً له.

لم يكن تحقيق النبؤات في إنجيل الطفولة خاتمة البشرى السارّة، بل بداية لتحقيق ملكوت الله في رسالة يسوع العلنية. كلّ الأناجيل الإزائية تشدّد على هذا الموضوع، ولكن يحقّ القول أنّ متى هو إنجيل الملكوت بامتياز.

مريم في رسالة يسوع

في إنجيل متى، لا تدخل مريم بشكل مباشر في رسالة يسوع العلنية، وما قاله في إنجيل الطفولة أثّر على حضورها في باقي الإنجيل. تبيّن المقارنة مع إنجيل مرقس ما يصبو كاتب الإنجيل الأول على إظهاره في شخص مريم، الملكة الأم والبتول التي ولدت يسوع المسيح من الروح القدس، وهو في نفس الوقت ابن داود بواسطة يوسف الّذي تبنّاه بوحي من الله. لا يمكن أن لا يكون لهذه الحقيقة الإيمانيّة تأثير مهمّ على ما سوف يخبر عنه متى لاحقاً، خاصة في ما يتعلّق بعائلة يسوع.

أسرة يسوع الحقيقيّة (متى ١٢ : ٤٦ – ٥٠)

يجدر الإشارة في البدء أنّ هذا النصّ لا يتعلّق بسرّ أمومة مريم، بل هو تعليم يسوع عن الأسرة الحقيقيّة التي ينوي تأسيسها: أسرة الآب وفي مركزها ابنه يسوع. تلاميذ يسوع مدعوون لأن يصبحوا أسرة يسوع من خلال العمل بمشيئة الله الآب.

لا يذكر متى خبر مرقس السابق لهذا النصّ: «وبَلَغَ الخَبَرُ ذَويه فَخَرَجوا لِيُمسِكوه، لِأَنَّهم

كانوا يَقولون: «إنَّه ضائعُ الرُّشْد» (مرقس ٣: ٢١).

يقلّل بهذا متى شأن الاختلاف بين أسرة يسوع بحسب الجسد وبين الأسرة الروحيّة التي يريد تأسيسها.

نتبيّن الأمر في تقديمه المقتضب لوصولهم إلى المكان:

«وجاءَت أُمُّه وإخوتُه فوقَفوا في خارِجِ الدَّار، وأرسَلوا إليه مَن يَدْعوه. وكانَ الجَمعُ جالِساً حَولَه فقالوا له: «إنَّ أُمَّكَ وإخوَتَكَ في خارِجِ الدَّار يَطلُبونَكَ» (مرقس ٣: ٣١ – ٣٢).

»وبَينَما هو يُكَلِّمُ الجُموع، إذا أُمُّه وإخوَتُه قد وَقَفوا في خارِجِ الدَّارِ يُريدونَ أَن يَكَلِّموه، فقالَ لَه بَعضُهم: «إنَّ أُمَّكَ وإخوتَكَ واقِفونَ في خارِجِ الدَّارِ يُريدونَ أَن يُكَلِّموكَ» (متى ١٢: ٤٦ – ٤٧).

يأخذ متى عن مرقس خبر أسرة يسوع الحقيقيّة، مع الأخذ بعين الاعتبار ما قاله عن مريم ودورها في بداية الإنجيل. لا يصوّر متى أي تناقض بين تعليمه عن أسرته الحقيقيّة وذويه بحسب الجسد الّذين يسألون عنه في خارج الدّار. هذا لا يعني أنّ في إنجيل مرقس ما لا يجب أخذه بعين الاعتبار، لأنّ كلّ الكتاب المقدّس من وحي الروح القدس، بل يعني أنّه يجب علينا أن لا نقرأ أبداً آية منفردة دون المقارنة مع ما يوازيها في سائر الكتب المقدّسة. كما يجب الانتباه لتطوّر الوحي في الكتب المقدّسة، وفي أسفار العهد الجديد نفسه. لذلك لا يمكن فصل ما يقوله أحد أسفار العهد الجديد عن مريم أو عن المسيح نفسه عن سائر الأسفار.

يريد يسوع الانتقال من الروابط الجسدية إلى الرابط الروحي. ومريم هي الأولى التي ارتبطت بيسوع بالروح لأنّها أنجبته من الروح القدس. شهير قول القدّيس أغسطينوس في هذا السياق أن مريم هي تلميذة يسوع قبل أن تكون أمّه بحسب الجسد لأنّها عملت منذ البدء بحسب مشيئة الآب الّذي في السّموات.

لا يمكن أن تجد أسرة يسوع الجديدة بدون مريم، كما لا يمكن للمجوس أن يجدوا الطفل يسوع الملك بدون أمّه. دخلوا البيت ورأوا «الطفل مع أمّه مريم». وكأنّ الكنيسة الأولى أرادت في إنجيل متى إظهار دور مريم، دائماً في المركز إلى جانب ابنها يسوع.

يسوع في وطنه الناصرة (متى ١٣: ٥٣ – ٥٨)

»ولَمَّا أَتَمَّ يَسوعُ هذه الأَمثال ذَهبَ من هُناكَ وجاءَ إلى وَطَنه، وأَخَذَ يُعَلِّمُ النَّاسَ في مَجمَعهم، حتّى دَهشوا وقالوا: «من أَينَ لَه هذه الحكمةُ وتلكَ المُعجزات؟ أَليسَ هذا ابنَ النَّجَّار؟ أَليسَت أُمُّه تُدعى مَريم، وإِخوَتُه يَعقُوبَ ويُوسُفَ وسِمعانَ ويَهوذا ؟ أَوَلَيسَ جَميعُ

أَخَواته عِندَنا؟ فمِن أَينَ لَه كُلُّ هذا؟ وكانَ لَهم حَجَرَ عَثْرَة. فقالَ لَهم يسوع: لا يُزدَرى نَبِيٌّ إِلاَّ في وَطَنِه وبَيتِه. ولَم يُكثِرْ مِنَ المُعجِزاتِ هُناكَ لِعَدَمِ إِيمانِهِم».

كل الخبر يهدف إلى تقديم كلمة يسوع الختامية «لا يُزدرى نبيّ...».

يطرح النّاس خمس أسئلة عن أصل يسوع. نظراً لحكمة يسوع والمعجزات التي قام بها، كان يجب أن يكون الجواب: كل هذا من الله. ولكن ابناء وطنه لم يتقبّلوا كلمة الله.

في قول يسوع تجدر الإشارة إلى عدم ذكر الأقارب كما في مرقس:

«لا يُزدَرى نَبِيٌّ إِلاَّ في وَطَنِهِ وأَقارِبِهِ وبَيتِه» (مرقس ٦ : ٤).

وفي هذا الاختلاف نظرة إيجابية لأقارب يسوع.

في السؤال عن أصل يسوع، نقرأ في متى: أليس هذا ابن النّجّار؟ أمّ يسوع تُدعى مريم ويوسف هو النجّار. بينما نفس السؤال في مرقس يرد في الشكل التالي: «أَلَيسَ هذا النَّجَّارَ ابنَ مَريَم؟» (مرقس ٦ : ٣).

يعيد متى قراءة الاحداث على ضوء إنجيل طفولة يسوع: يسوع ابن مريم من الروح القدس، ابن يوسف النجّار بالتبنّي. يسوع هو حقاً انسان ووُلد في أسرة عمّال بسيطين وهو أيضاً نجّار.

أما تعليم النصّ فيتعلّق بقبول يسوع ليس فقط كإنسان، بل الإيمان به المسيح ابن الله.

في الخاتمة

نتأمّل مريم العذراء، أمّ يسوع، في أبهى صورة في إنجيل الطفولة. إنّها أمّ المسيح الملك التي ولدته من الروح القدس. مريم البتول تلد المسيح ابن داود لأنّ يوسف النجّار أعطاه النسب الداوديّ. أراد ابن الله أن يُولد في أسرة متواضعة، فارتبط سرّه بالتاريخ البشريّ، على أنّه ابن مريم من الروح القدس وابن يوسف النجّار بالتبنّي.

لا يمكن لأيّ إنسان أن يلتقي بيسوع المسيح والملك بدون أمّه مريم الملكة. هكذا كان الأمر بالنسبة للمجوس وهكذا هو على مرّ العصور في الكنيسة. دخلوا البيت فرأوا الطفل مع أمّه. ندخل الكنيسة في كلّ زمان ونرى يسوع مع أمّه مريم. نسجد لابن الله المسيح الملك ونكرّم أمّه سلطانة السّماء والأرض. تحمل مريم العذراء الطفل يسوع ليسجد له المجوس، وتحمل الكنيسة على مثالها يسوع المسيح لكلّ إنسان ليسجد له بالإيمان فينال فرح الخلاص.

أسّس يسوع عائلة الله من كلّ تلاميذه الّذين يؤمنون به ومريم أمّه هي مثال كلّ تلميذ ليسوع، في مدرستها يتعلّم الإصغاء لكلام الله والعمل بمشيئته.